حين سألني جبرا كيف (شمّعت) الخيط ؟

صلاح حسن*

(شمّعت الخيط) بهذا المثل العراقي المشهور استقبلني جبرا ابراهيم جبرا حينما جئت ازوره في فندق القدس في عمان بعد فراق دام سنوات. يقال هذا المثل، العراقي للناجي من بطش السلطات الجائرة مهما كانت. كنت قد فررت في العام ١٩٩٢ بأعجوبة من ايدي المخابرات العراقية في ذلك الحين بمساعدة اشخاص لا اعرفهم حضروا من تلقاء انفسهم الى مقهى حسن عجمي واخبروني بضرورة الهرب الى أي مكان قبل حضور عسس الليل. المفارقة ليست هنا، ولكنها تكمن في الشخص الذي يستخدم هذا المثل. وحين يكون هذا الشخص جبرا ابراهيم جبرا فأن المفارقة ستتحول الى موقف وقرار خطير.

جبرا ابراهيم جبرا

كان ذلك قبل سنتين او ثلاث سنوات من وفاته واذا كنت اتذكر جيدا فالمناسبة هي مهرجان جرش الثالث عشر. كنت مدعوا لقراءة نصوص للاطفال، وكان جبرا مدعوا الى مؤتمر في لندن وينبغي عليه ان يمر على عمان لانها كانت المنفذ الوحيد للعراق الى الخارج. طلب لي فنجان قهوة وبدأنا نسترجع ذكريات قديمة عن بغداد وشارع الاميرات واتحاد الادباء وسألني عن المعجزة التي جعلتني انجو من الكارثة (كيف شمّعت الخيط).

اخبرته بالقصة فهز رأسه في الهواء كأنه يعتذر عن سذاجة السؤال وسألني ان كنت بحاجة الى مساعدة مادية، ولكنه استدرك وقال ان لديه هدية لي سوف يحضرها في المساء اذا عدت الى زيارته ليلا. كانت قنينة عرق عصرية عادة ما يحرص القادم من العراق على تقديمها كهدية الى اصدقائه المنفيين الذين يعرفون مرارتها وطعم الطين فيها. في الصباح الذي تلا هذا اللقاء غادر جبرا الى لندن ولم اره بعد ذلك ابدا.

تعود علاقتي بجبرا الى منتصف الثمانينيات من القرن المنصرم واول مرة التقيه بشكل مطول كان في دار المأمون للترجمة حيث كنت اعمل هناك مصححا لغويا. اخبرني انه وجد لي بعض القصائد منشورة في صحف ومجلات متفرقة تصدر كلها خارج العراق الذي كان يخوض وقتها حربا عبثية مع ايران. كما اخبرني ايضا انه يحتفظ بهذه الصحف والمجلات في بيته ويمكنني ان ازوره والحصول عليها. كنت سعيدا للغاية من سلوك هذا الرجل الذي كنت انظر له بهيبة ووقار شديد.

بعد يومين كنت في بيته في حي المنصور الراقي في شارع الاميرات. بيت جبرا عبارة عن مكتبة كبيرة فالكتب تستقبلك اينما اتجهت حتى الممرات كانت تزدحم بجانبيها بكتب متعددة الاشكال واللغات. كنت مرتبكا قليلا وانا اجلس على طرف الكرسي حين فاجأني جبرا بصحن انيق فيه انواع مختلفة من الشوكولاتا واظن انها المرة الاولى التي اتناول فيها شوكولاتا حقيقية، فمن عادة جبرا ان يقتني الكثير من الحلويات الغربية عندما يكون في زيارة الى اوروبا. تناولت قطعة وبدأت اقلبها في فمي لطعمها المذهل قبل ان ازدردها وتناولت اخرى مثل طفل محروم يشجعني جبرا على تناول المزيد غير اني توقفت. بعد قليل ذهب جبرا الى المطبخ واحضر شايا مثلجا وقال لي جرب هذا. كنت مندهشا بقدر ما كنت فرحا بهذه الاكتشافات الجديدة (شوكولاتا وشاي مثلج) وفي بيت جبرا ابراهيم جبرا الذي احضر لي قصائدي المنشورة في الخارج!! أي نوع من الرجال هذا الشخص ؟؟ لم اكن اتكلم كثيرا وقد شعر جبرا بقلقي فقام واحضر الصحف ومجلة كبيرة هي مجلة اليوم السابع التي كانت تصدر في باريس وقد نشرت لي قصيدة طويلة اخذت صفحة كاملة من المجلة. كنت اتمنى ان اسمع من جبرا رأيه فيما اكتب وكدت اهم بسؤاله ولكني تراجعت في اللحظة الاخيرة. لقد كنت في الخامسة والعشرين.

خرجت من بيته وانا اكاد اطير من الفرح، ليس بسبب القصائد المنشورة في الخارج فقط ولكن لاهتمام جبرا الملحوظ بي هذا الرجل الذي كنت انظر اليه بوصفه شخصا يعرف كل شيء عن الادب والفن والترجمة اضافة الى ابداعه في هذه المجالات كلها. قبل ان اخرج اعطاني رقم هاتفه وقال انه يمكنني ان اتصل في أي وقت اشاء. عندما كان يقال لي ان جبرا في الخارج كنت انتظر بفارغ الصبر عودته محملا بعدد من الصحف والمجلات الجديدة التي كنا محرومين منها في العراق، اضافة الى الشوكولاتا والشاي المثلج طبعا.

البعض من المثقفين العراقيين كان يعتقد ان جبرا مستفيد من نظام الدكتاتور صدام حسين نظرا للمكانة التي يتمتع بها والامتيازات المادية التي يحصل عليها، ولكنني شخصيا اعتقد ان نظام الدكتاتور كان هو المستفيد من وجود جبرا في العراق، فلا احد يستطيع ان ينكر اسهامات جبرا الكثيرة في مختلف المجالات الادبية والفنية. لقد كان وجود جبرا بيننا محرضا بحد ذاته، وعندما يقول شخص مثله وبفم مملوء لشخص هارب من جحيم القتلة (كيف شمّعت الخيط) ؟ الحمد لله انك استطعت الهرب، يعني ذلك ان جبرا كان معنا وليس ضدنا ابدا.

* شاعر عراقي مقيم في هولندا.

محاباة

محمد النصار

يتقاسم الفجر الديكة
مع اللصوص.
ينبح عابر سبيل
حينما تنهره سحابة شرسة.
تتداعى بيوت
على أنهارها.
يغلط لغز
بتهجي أسماء الغزاة.
يبرر النهار
قطيع الكلمات الحائرة
يفح قلب حسرات
قلب
خارج تواً من المصيدة.
كل خريف
تتسول شمس مريضة
أصابعي.
....
لافلت من عقاب العقل الصارم
لابد من المحاباة.

عبودية

لم يصفدوا هذا الذئب
لكنهم أدخلوه
إلى سجن الكلمات
وهناك
سملوا عينيه

التقرب إلى البراري
وليس التضرع
إلى الإله
هو ما ينساه
النهر عادة
حينما يقترح القلم
نافذة
لطائر يتنكر
للفضاء.
التكثيريون
يتوددون
للسراب المحاصر هنا
والجنائن
ملصوقة على جدرانها
صور العبيد المجهولين.

زوال

سواحل لا تكترث بأسماء الغرباء
ولا بعناوينهم.
زمن يصف الأوطان على عجل.
ثلاثة يجادلون بعضهم
الجمهور
والصبر
والأسطورة.
تجلد الريح الحبر
ونادراً

ما تتروى النار
في حكمها على الملوك المندحرين.
هذا ما تقوله الأسطورة للجمهور
بينما الحكيم الأدرد
يسرد أرامله للمجهول.
....
ضع القبعة بعيداً
أيها الرأس
المهيا للقطاف
أما الكتاب الذي ينز منه الدم
فلا أحد.
....
في المدن تحتاج أن تكافئ النوافذ
أن تركز حيرتك بين الأفق والعدم.
ولا مناص من العيون التي يتلصص عليها المستقبل.
فقتل الجملة وليس الرغبة
ما يوصي به الشعراء
حينما يعود الموت
وحيداً
بلا غواة
......
هذه الأسلاك الشائكة
ليست فهوداً
إنها بقايا سماوات
خانتها الآلهة.

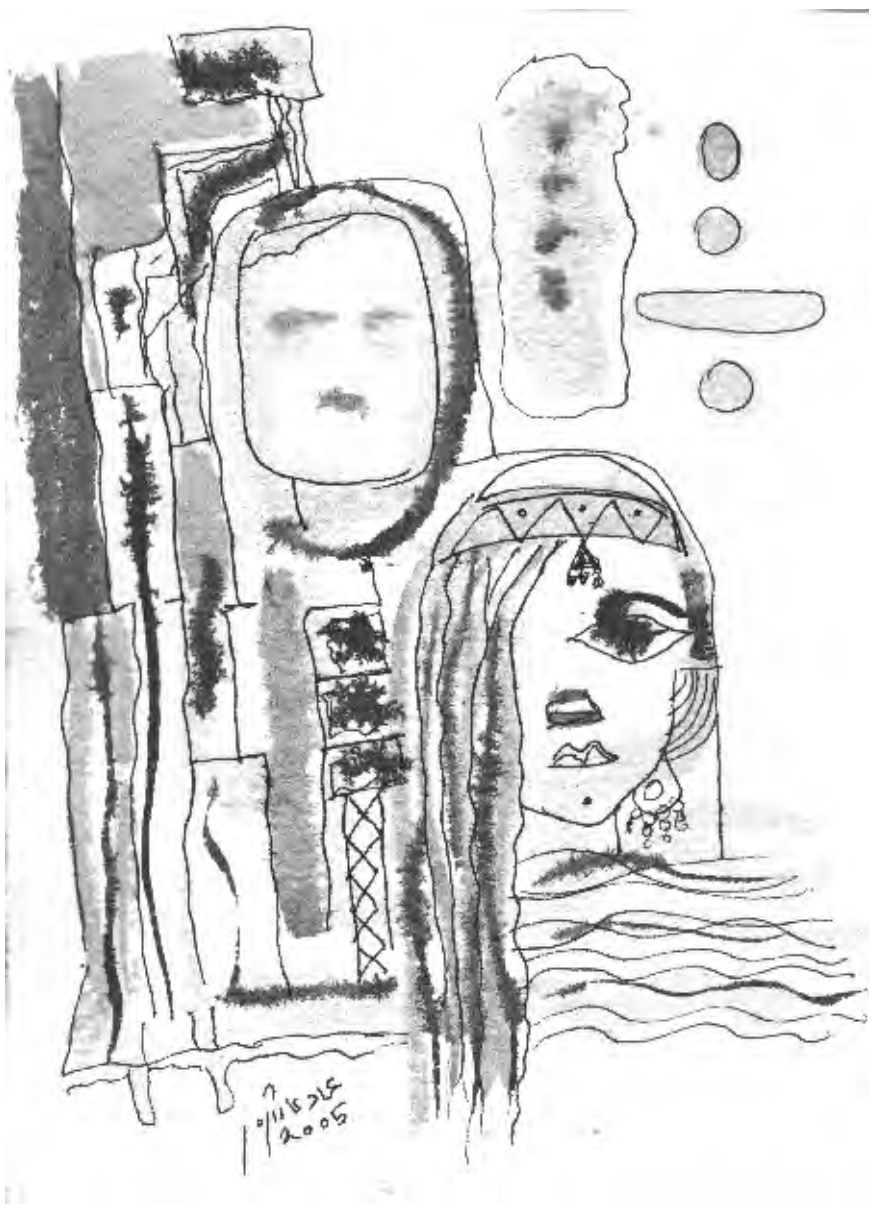

أحلام فترة الإقتراع

محمد خضير

١- على باب الله

تدثرني الأحلام كما دثرت بدر شاكر السياب الطريح (على باب الله)، وقد امتدت فترة (سرير المرض) في حياته من (الوصية) آخر قصائد (المعبد الغريق) (بيروت ١٩ / ٤ / ١٩٦٢) حتى (إقبال والليل) آخر قصائد المستشفى الأميري في الكويت (غير مؤرخة) انطفأت في لهبها الراعش حياة السياب القصيرة (في ٢٤ / ١٢ / ١٩٦٤). كانت قصائد السياب خلال فترة المرض رؤى تطرق الباب على (أيوب) العصر التموزي محملة بأطياف القرية المفقودة، تمنّيه بعودة الحنان العائلي ورواء الحب الجسدي الأنثوي الذي ضلّ هدفه.

الفترة الخصيبة التالية كانت (فترة النقاهة) التي أنتجت أحلام نجيب محفوظ، بعد تعرضه لحادثة إغتيال في عام ١٩٩٤, تأتي هذه الفترة في ختام مراحل تراكم أسلوب محفوظ الروائي، شفافة كالماس (تتوهج بتلك القطع الفريدة النادرة، المفعمة بالحكمة والإشارات الرمزية والألوان الباهرة المتعددة) حسب تعبير صلاح فضل.

فترتان، عمر الأولى أربعة عقود، وعمر الثانية تسعة عقود، تشرفان على فترة حياتي (فترة الإقتراع) وتحفزانها على بث أحلامها في عمر مشدود إلى زمن يتراجع إلى وراء فيلتقي بفترة السياب، ويتقدم إلى أمام فيتصل بفترة محفوظ، ويستقي من كلتيهما أحلام شباب وكهولة، نوروظلام، عجز وابتداء، سكون كالموت وجريان كالنهر يسير بالعمر إلى نهايته، نهاية الأشياء والحيوات، نحو النور أو نحو الظلام. في هذا الصباح من يوم الإقتراع، استيقظت وانتشلت الحلم الآتي من خضم وعي الفترة المزيد بالأحلام :

صفٌ طويل من البشر،يتراصف مستقيماً قبالة بناية لا يفصح بابها عن دواخل منشآتها، ولا الغيوم التي تلامسها عن وقت تقاطر أفراد الصف الأوائل عليها، ولا اختلاف الأعمار عن المهمة التي استدعوا لأدائها. التحقت بنهاية الصف، ولم ألبث حتى خرقت نظام الوقوف، وتقدمت عدداً من الأشخاص، بحافز جسور كنت اكتسبته من محاولاتي في خرق الصفوف المتقاطرة على الأسواق المركزية، وبارحتُ مكاني عدة مرات حتى شارفتُ مقدمة الصف، وكان يحتلها أشخاص هم أكثر المتقاطرين تململاً وتحرقاً لدخول المبنى من بابه الكبير، وقد أُرتجَ أمام وجوههم.

لم يعترض مصفوفٌ على تجاوزي له في الصف، بل اكتشفت أن مصفوفين يتقدمون وغيرهم يتأخرون، في حركة إزاحة مستمرة، حتى ارتصفتُ وراء الأشخاص القلائل الذين يتكأكأون على مصراعي الباب المغلق وينكبّون على ظلال أمتعتهم المطروحة تحت أقدامهم منذ أمد غير معلوم. بدا الباب عظيماً، ثقيلاً بالمسامير التي ترصعه، ثابتاً في السور تحت عقد شاهق يتوّجه، بلا رتاج ظاهر يُقفله، ولا مقبض خارجي يدفع به، ولا رجاء يقصر انتظار الصف وإن طال زمناً لا تقدير لحسابه.

وما كدتُ أحسب مدة وقوفي أمام الباب، حتى انفرجت طاقةٌ في مصراعه الأيمن، فنهض رجل من رصفاء الباب وأطل منها برهة ثم عاد إلى مكانه مبلبلاً مهتاجاً. إنغلقت الطاقة بعد انفتاحها لحظات، وبات يفصلني عنها ثلاثة رجال : كسيح يتوكأ على عصا، يتبعه . يا للعجب . شيخ اعمى، يلاصقه مخبول مصاب بداء الفيل. سأل الأعمى رصيفه الكسيح عما شاهده عبر الطاقة، وكال المخبول السباب لرصيفه الأعمى. ثم حانت لحظتي فتقربتُ من الكوة وألصقتُ بها وجهي عندما انفتحت أمام بصري. أطللتُ على فناء وسيع، مبسوط بيد الخفاء و السكينة، ممدود بخفقات الأنفس التي انقطعت أدوارها واختفت عن الأبصار، ثم دنت الغيوم لتمسح آثارها بشآبيب المطر. نفضت الغيوم حملها، وعندما كفت عن التهطال انشقت عن بشائر ضوء سقطت على بلاطات الفناء وغمرت وجهي بانعكاسها. جرى كل هذا النوء في إطلالة غاب عني حسابها، فهي إما أقصر من رفّة جفن أو أطول من رقدة قبر.

سالني ظهيري عن رؤيتي، فأخبرته بمسرح الفناء ونوئه، فقال أنه رأى ما رأيت، ثم أضاف : كم لك من الوقت وأنت واقف أمام هذا الفناء؟ أجبت : سويعات. قال : أنت محظوظ. أمثالنا ينطرحون أعواماً أمام باب الله.

إلتفتُ إلى محدثي، ففوجئتُ بانفراط الصف الطويل، إلا من الفيل المخبول الذي راح يصبّ لعناته على رأس الشيخ الأعمى، ومن ظهيري الكسيح الذي عاد إلى انطراحه أمام الباب، يدقّه بعصاه ملتاعاً، لاهجاً بصوت متهدج : (أتسمع النداء؟ يا بوركتَ تسمع.))

٢- لقاء مع سعدي يوسف

لقاءاتي بسعدي يوسف نادرة في الحياة الواقعية، وندرة المصادفات التي جمعتني بمشاهير الأدب أمر غير مستغرب، إذ أني أؤمن بأن أقداراً سعيدة مثل هذه لن تقع لي أبداً حتى لو قصدت إليها بقوة. ولكي أحقق سعادات انفرادية بدأتُ بإعداد لقاءات حرة مع المشاهير في أحلامي. هكذا جاء الدور للقاء سعدي يوسف، وقد ظهر في حلمي مصادفة، وكنت حراً في اختراق نطاق غيابه المنيع.

كنا مجموعة أدباء، لا أتذكر وجهاً منهم، نجلس في غرفة، وكان سعدي يوسف يجلس وراء طاولة، يمسك بريشة ودواة حبر صيني، ويخط على ورقةٍ أسماء أدباء عراقيين، بالخط الديواني (لا أعرف إن كان سعدي يوسف يجيد هذا الخط فعلاً). هل كان سعدي زائراً، أم محرر صحيفة، أم موظفاً في مقبرة؟ لا تكشف الأحلام عن المواقع الأصلية التي تقع فيها، لذا افترضتُ أن الوظيفة الأخيرة مناسبة جداً لتفسير حلم اللقاء، فقد جرى الحوار التالي بيني وبينه، عندما كان يخط اسم أديب عراقي شهير. قلت لسعدي : (هذا الأديب ألدّ الخصوم لك ولي ولمجموعة من أصدقائه الذين انقلب عليهم).

ابتسم سعدي ولم يجب، وأفترضُ أنها من الابتسامات النادرة التي ترف على وجه الشاعر المتجهم الذي ينطبع في الصحف وجهاً صخرياً لا يُنال أو يُستحضر على حقيقته الآدمية الأليفة.

تذكرتُ أني في حلم، وأني أخاطب شخصاً أستحضره بنفسي، وأني وحدي أدير الأسئلة والأجوبة، ولا أتوقع حواراً إيجابياً من الأشخاص الذين يعمرون حلمي. فجأة قال سعدي : (يتهمني الخونة إنني لا أكترث بالمقابر الجماعية. يا له من اتهام سخيف! لكنني فعلاً تركت المقابر وراء ظهري، ولا أفكر في زيارتها بعد اليوم).

شجعني قوله على سؤاله:(هل كتبتَ قصيدة عن المقابر؟ لم أقرأ شيئاً كتبته عن مقبرة).

عادت الابتسامة الغامضة إلى وجهه الذي لم يرفعه عن الورقة، بل واصل خط الأسماء بتجويد أكبر. تقدمت أكثر من هدفي وقلت : (أتتذكر مقبرة القرية؟ حدبات القبور المتفرقة، والسور الطيني الذي يتقافزه الأطفال وقت الظهيرة ليقتلعوا أزهار نوع من الحشائش يدعى (شيخ اسم الله) ينمو بين القبور. إنه منظر لا تشاهده في أية مقبرة أوربية ذات هندسة واخضرار دائم).

لاحظتُ اهتمامه بإفادتي، لكنه لم يصرح بشيء. كان يدير الفكرة في رأسه، كما افترضت، ولا يريد أن أشاركه سرحانه في مقابر الشعر، وانكبّ أكثر على خطّ الأسماء. ثم انتهى اللقاء فجأة، وغابت الوجوه كما تغيب عند انقطاع تيار الكهرباء، أو عند سفور فجر بضبابه الكثيف.

دوّنتُ الحلم في الصباح، وذهبت في تفسيره افتراضات شتى، أولها أن قصر الحلم يعود إلى قصر الحوارات الحقيقية في عالم الأحلام. فالأحلام صورية لا كلامية. أما مهنة الشاعر التي تجلى بها فقد فسرها الحوار نفسه حول المقابر. هل كان الشاعر يعدّ قائمة بالأسماء التي يزمع إرسالها قبله إلى العالم الآخر، أم أنها الأسماء التي يود مصالحتها على سفح البرزخ عندما تحين رحلته؟ لا تفسير أفضل من تجربة اللقاء نفسه. لكني أعرف أن هذا اللقاء نسخ أي لقاء حقيقي سابق، أو لاحق قد يحدث في أي مكان مع الشاعر.

٣- الكتاب الأخير قبل الإعدام

هل يفكر الكتّاب بإنهاء أعمالهم الأخيرة في الوقت المناسب، قبل انفصام لحظتي الحياة والكتابة؟ لقد وصلتُ إلى هذه المرحلة التي أقرر فيها وضع العنوان الأخير على قائمة مؤلفاتي، ثم أسلم رقبتي لأولئك الذين سيفصمونها ومعها كتابي. استبقتُ لحظة إعدامي في حلمي، وكنت احتسبُ دائماً لوضع السطر الأخير في كتاب عمري، والتوقف نهائياً عن العمل. أضع النقطة التي ستنهي السطر المتعرج في حياة كل كاتب على وجه الأرض. وعندما حان وقت تنفيذ الحكم رجوتُ الجلادين الذين يستعدون للإجهاز على أنفاسي أن يأخذوا مني العمل الأخير وينشروه.

كان حكم الإعدام يُنفَّذ ببشاعة. يُؤخذ المحكومون إلى جرف مائي ضحل، ثم يُضربون بهراوة على فقرات أعناقهم ضربات قوية متوالية حتى تنفصم ويطمسوا في الماء المضحل المخلوط بالطين. سيقَ قبلي كاتبان أنهيا كتابيهما للتو إلى حتفيهما، ورأيتهما يسيران مع جلاديهما طوعاً إلى المضحل المائي الذي ترسو فيه قوارب متجاورة كالحة اللون، من مخلفات ما كان يُعرف بالمرفأ القديم.

سبق تنفيذ الحكم استجواب قصير. سألني الجلاد الأكبر:(ما رغبتك الأخيرة قبل إغراقك؟). أخرجتُ من ثيابي رزمة أوراق مرتبة، وقلت : (أتمنى أن تنشروا كتابي هذا). (أستعيد حجم الكتاب، وأنا أدون هذا الحلم، فأتذكر على وجه الحقيقة حزمة أوراق لا تؤلف سوى فصل في كتاب). نظر الجلاد في الأوراق ثم قال : (لسنا ملزمين بنشر مخطوطاتكم، لكننا سنحترم رغبتك وندسّ ملزمة كتابك في وسط طبعة من روايات فرانسوا ساغان). (وأفكر الآن بوظيفة الجلادين الإضافية، وأظنهم كانوا ناشرين في دار ملحقة بمضحل الإعدام). قلت: (هذا كتابي الأخير وأريد نشره في طبعة مستقلة).

لا سبيل إلى تنفيذ رغبات الأحلام، مثلما لا تُحترم وعودها. فكرتُ بذلك وأنا أسير بين أيادي جلاديّ إلى مضحل السكون الأبدي، حيث لا صوت للضربات، ولا ألم، ولا نهاية لسطر الظلام الأخير، المتعرج على شاشة طابعة الأحلام.

٤- نملة المقبرة

انتهينا من دفن رجل تحت جدار قبة الحسن البصري في مقبرة الزبير. حدبات القبور تتراصف حدّ البصر، فوق الرمل المتحجر للمقبرة، شواهد قديمة، شواهد حديثة، حَفرتْ النمال أسفلها مساربَ غائرة، إلى أين؟ إلى الأجداث البالية، الأحلام الذاوية، أم إلى الدهر المتحلل ذرّات لا نهاية لها في ضوء الشمس؟ سربٌ أسود طويل، نملات كبيرات، تسعى بين الأقدام، غير آبهة بتلقين الميت كلمات الحياة الأخيرة، حكمةَ الموت التي خلّفها للأحياء المتجمعين حول قبره، أذانَ الظهيرة الذي أخذ يرتفع خلف حدود المقبرة، كم عمرها؟ هذه النملة الوحيدة، الضالة عن السرب، تصعد وهاداً، وتقطع مهاداً، قادمة من بعيد البعيد، إلى قريب القريب، ما مهمتها اليوم؟ تلتحق النملة الساعية بسربها، حاملة بين قرنيها اسم الميت المحذوف من قسائم الأحياء المقترعين على آجالهم.

٥- نُصب

يتابع المتفرج المندسّ بين آلاف المشجعين الصاخبين مباراة صامتة تدور رحاها في مضمار رأسه. ركلة صاروخية، الكرة تفلت من حدود الملعب وتنقذف في فضاء المدينة المعبأ بالغبار والضجيج. كرة تتلوها أخرى، تتقافز وتعيق سير طوابير السيارات والسابلة. مهاجمو المنتخب الوطني لكرة القدم يصلون هدف الخصم ويمطرونه بكرات تطيش وتطير خارج الملعب. هياج يتبع الكرات، لكن المتفرج المسمر بين الجموع النطاطة لا يسمع إلا رجعاً متقطعاً يرجّ أوتار الصمت في دهليزي أذنيه رجّاً هامساً، لا يميز فيه رجع النواح من رجع الزغاريد. حركات المذيعين وراء زجاج المقصورة المشتركة تفضح حرارة مباراة هجومية يتداول أشواطها رماة يتقاتلون بضراوة، وراء متاريس الملعب وراياته و اعلاناته وصخبه، على ملعب ملغوم.

كرات طائشة من كل نوع، يتابعها المتفرج في مقعده بين المقاعد الخالية من المشجعين الخُرق. تخطف الكرات فوق رأسه وتسقط في الفضاء المحيط بالملعب، كرات جلد تتقافز على الاسفلت، كرات حديد ونحاس لامعة تتدحرج في منعطفات الأزقة. انتهت المباراة، فرغت المقاعد، إلا أن مكبرات الصوت المحيطة بالملعب متدفقة بالصراخ والتهريج : عبارات حماسية، بيانات حرب، أوامر قتل، منع سفر، تعليمات عزل وتهجير. أضواء الملعب الكشافة مسلطة على النصب الذي يخلّد مباريات الحقد والقسوة : كرة معدنية كبيرة في وسط الملعب، تسحق العشب الندي، تملأ سطحها الأملس الشقوق والثقوب السود.

ينتبه المتفرج الوحيد بين مدرجات الملعب على كرة يطبق عليها بأصابع كفّه، كرة بليارد خضراء، كرة أحلامه تشع ببريق خافت.

كانون الأول ٢٠٠٥